فيلـم « القطيـع»

عرض وتحليل
سيناريو : يلماز جوني
اخراج : زكي أكطن[1]

نجد، ضمن الانتاج السينمائي التركي، حالة يلمازجوني الاستثنائية مطروحة باستمرار، فهو ممثل سابق، ومخرج لعدد هائل من الأفلام، وهو، كذلك، بطل شعبي لأسباب سياسية. ومن السجن الذي يوجد به منذ 1972 يواصل كتابة السيناريوهات ويشرف على دار للانتاج.

و «القطيع» أحد هذه الأفلام، كتبه وأنتجه في هذه الظروف، وهو فيلم يُغَرِّب، يحكي تاريخا، يثير، لكنه فيه أيضا للخيال، المرتبط بالحقيقة الاقتصادية والاجتماعية، حجم سياسي.

ينتمي «شيبان»[2] إلى أسرة من البدو الرحل، يرعى الغنم، أخذ نفوذهم ــ أي الرحل ــ يتناقص يوما بعد يوم في مواجهة ظروف حياتية تزداد صعوبة، فرضها مشترو المواشي القاطنون بالمدينة الكبيرة، إن زوجة شيبان، التي تنتمي إلى عائلة منافسة، تحتضر : قد أصبحت لا تستطيع الكلام، وظلت بدون أبناء (لقد فقدت في سن التاسعة عشرة ثلاثة أبناء). عيناها الحزينتان ونظراتها التائهة الخائفة، أو المتحفظة المعترفة بالجميل، وحدها تدل على أنها ما تزال على قيد الحياة.

إن شيبان مستعد لكل شيء من أجل أن تشفى، وبعد أن عرضها على المداوين وعلى الطبيب المحليين قرر أن ترافقه في الرحلة الطويلة بالقطار، رفقة القطيع الذي يجب تسليمه في أنقرة. وهناك، بعيدا عن عدوانية واستبدادية رئيس العائلة العجوز الذي يظن أن «بريفان»[3] ترفض أن تعطي خلفا لعائلتهم، كان يأمل ــ أي شيبان ــ بأنها ستشفى، وستبدأ ــ بالنسبة إليهما ــ حياة جديدة.

يرسم الفيلم، إذا تجاوزنا اللون المحلي، لوحة حقيقية لتركيا المعاصرة التي تزداد صورتها عنفا وقمعا من خلال ثلاثة مراحل وثلاثة أمكنة تتعاقب تاريخيا : الأول مكان تجمع البدو الرحل، فالأرض هناك صلبة صعبة، ولكن المساحات الشاسعة وألوان الجوخ لها ألوان لماعة، والنساء يبشن الحلويات فوق صفائح منتفخة، وعند حلول الظلام ينكشف الرجال أمام زوجاتهم (لقطات سريعة تمر من خيمة إلى أخرى....).

إن طريقة العيش قاسية تقليدية، يفرض الأب والتقاليد والظروف المادية والاقتصادية قانونهم على الجماعة، لكن يوجد، على الأقل، رابط قوي وتوافق معين بين الانسان والطبيعة (اللقطات الرائعة الأولى للفرسان فوق المرتفعات تفقدهم الكاميرا، ثم تجدهم ثانية، ثم تقربهم بمصاحبة موسيقى من الأصوات التي يردد الفضاء صداها...).

بعد ذلك تأتي الرحلة الطويلة بالقطار الى أنقرة، مرحلة طويلة تهيىء عالما قرويا للانتقال الى عالم مديني: الفساد،هجوم جماعة على القطار وفرارهم بعد أن سرقوا أربعة خرفان ذبحوها ثم وضعوها في

صندوق، البغاء داخل إحدى عربات القطار، هجرة سكان البوادي جميعا، وهم يشبهون قطيعا يقاد إلى المجزرة بعد أن هلك نصفه ــ أي القطيع ــ أثناء السفر.

وأخيرا أنقرة («عاصمتنا» قال شيبان بإعجاب)، المدينة المحايدة حيث يمتلك الأغنياء كل ما هو جميل، وحيث يجب انتظار ثمانية أيام لدخول المستشفى، وحيث يقتل بائع الصحف الثورية وسط الطريق، حيث يتصادم نوعان من الحضارة (تموت بريفان أيضا لأنها لم تتمكن من أن تعالج)، حيث تذوب العائلة، وحيث تنتهي مأساة ضحيتين، مأساة الحب والأمل المُهان[4].

إن مهارة السيناريو تكمن في كون البطلين قد أصبح وضعهما نموذجا. فصمت بريفان هو ثمرة ورمز لشعب كامل في ألمه الخارق وبؤسه الذي لاحد له. فشيبان وبريفان يشبهان الطائرين في القفص الذي تركته بريفان عند أخت زوجها عند مغادرتهما الربع، لا يوجد أي مخرج لهما ولا يمكنهما الا أن ينتقلا من السلطة الأبوية الى السيطرة الاقتصادية، من السحر (الشعودة) إلى الطب الآلي، من البؤس الى الاستغلال... إن الشاب المديني، ولد ابن عم شيبان، وحده يستطيع الوصول إلى وعي سياسي ويناضل.

وتزيد الموسيقى الصافية جدا، المكونة من أصوات وأنغام المزامير والدفوف، من مأساوية وغنائية هذا العمل السينمائي.

هوامش :

1) أخرج زكي أكطن هذا الفيلم تابعا لملاحظات جوني يلماز الموجود بالسجن (م)

2) بطل الفيلم (م)

3) زوجة شيبان (م)

4) إن موضوع «الأمل المهان» من طرف الواقع السياسي، يوجد أيضا في فيلم سابق لجوني يلماز «الأمل» (1970).

عن مجلة «سينما» الفرنسية عدد 261 شتنبر 1980
مقال لكاترين طاكوني